جهود قراء نيجيريا في الحفاظ على رسم القرآن الكريم وصيانة مخطوطاته من الضياع

مخطوط الماهر زكريا بن إدريس أنموذجا

إعداد:

الدكتور ثاني موسى أياغي

قسم الدراسات الإسلامية والشريعة

جامعة بايرو كنو – نيجيريا

2016م

ملخص البحث:
منذ دخول الإسلام إلى ما يسمى اليوم بدولة نيجيريا، أخذ أهل هذه البلاد في الاشتغال بالقرآن دستور هذا الدين الحنيف حفظا وتلاوة وتدبّرا، وكان من اهتمامهم بهذا الكتاب الجليل عنايتهم بكتابته وإتقان رسمه عن ظهر قلب. وكان مما أبهر المستعمرين حين دخلوا منطقة شمال نيجيريا، أن وجدوا كميّة كبيرة من الحفاظ يشتغلون بصناعة النساخة المتمثلة في رسم المصاحف. وفي الحقيقة أن المخطوطات القرآنية هي أكبر موروث ثقافي عرفه شعب شمال نيجيريا، فلا يزال هذا الموروث يمثّل موردا عذبا للتنمية والحضارة جيلا بعد جيل. وليس من السهولة حصر جهود علمائنا الأفاضل في ذلك، ولذا تهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء في جهودهم عموما، ثم إشباع القول نسبيا عن مخطوط الماهر زكرياء بن إدريس رحمه الله كنموذج حي لتلك الجهود، وذلك عن طريق إيراد نبذة يسيرة من حياته العلمية، واشتغاله بالقرآن الكريم، والله المسئول أن يمن بفضله في إكمال هذا البحث، إنه ولي ذلك والقادر عليه

ABSTRACT
Nigerian scholars have contributed immensely in the area of studies of the Qur’an more especially, orthography of the Qur’an, they maintained this culture, and the used to prepared for this tremendous effort since the emergence of Islam in their country up to the coming of colonial masters to their territory, although the historians recorded that the colonial masters were excited with the skill mastered by northern scholars through their writing of Quranic Manuscripts by hearts. The efforts made by these scholars cannot be highlighted comprehensively in this paper; rather, the researcher will shed the light on their general efforts, and then concentrate on the gigantic contributions introduced by Sheikh Zakariyya Bn Idriss in the Area of orthography of the Qur’an, by putting more emphasis on his educational life, and his commitment in serving Quranic studies.

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.
وبعد: إن الحديث عن الموروث الثقافي يتناول عدة جوانب، منها جانب مادي وجانب معنوي، ومنها ما هو تراث مكتوب ومنها ما هو مسموع أو مرئي، والذي جذب انتباه الباحث وأزمع أن يكتب فيه، أنه نظر في تراث أمة الهوسا، فرأى أنهم مهتمون غاية الاهتمام بالقرآن الكريم والاشتغال بكتابته، وقد ترك الأولون لنا من مخطوطات القرآن شيئا كثيرا، ومع طول الزمن لا يزال هذا التراث يمثّل موقفا حضاريا يحقق لهم الريادة العلمية والمهارة، ويبعث في نفوس الناشئين الأمل في اقتفاء أثرهم، وفي هذه الأسطر يورد الباحث مجهودات العلماء الهوسويين في العناية بالمخطوط القرآني عموما، وبيان جهود الماهر زكريا بن إدريس في هذا الأمر، ويتكون الموضوع من النقاط التالية:
تاريخ القرآن الكريم في نيجيريا.
دور طلبة العلم في حف 1ذظ القرآن الكريم في نيجيريا.
عناية الحفاظ برسم القرآن ومجهوداتهم في ذلك.
نبذة يسيرة عن حياة الماهر زكريا بن إدريس.
إلقاء الضوء على مخطوطه في القرآن الكريم.
الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

تاريخ القرآن الكريم في نيجيريا.

تتكوّن دولة نيجيريا من دولات مختلفة قامت منذ مئات السنين قبل مجيء المستعمرين، وهذه الدولات منها دولة كانم برنو، ودويلات بلاد هوسا، ودولة نفى، ودولة يوربا، وهكذا، وبمجيء الاستعمار تمكّن من توحيد هذه الدولات المتشعبة إلى جمهورية فيدرالية، مكوّنة إثنيات عرقية، ولغات مختلفة، تحت نظام ديمقراطي.

يرجع تاريخ القرآن في نيجيريا إلى دخول الإسلام فيها، وبما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، فلا يعتنق المسلمون الجدد دين الإسلام إلا والتزموا بالقرآن الكريم تعلّمًا وتدريسا، للتعبد به، ولفهم دينهم الحنيف.

وقد وقع الخلاف في تحديد زمن دخول الإسلام إلى نيجيريا، فبينما يرى البعض أن الإسلام دخل إليها منذ عصره الأول، يرجع البعض الآخر دخوله إليها إلى القرن الثالث الهجري أو ما بعده، والقول الفيصل الذي لا ينبغي الاختلاف فيه هو أن الإسلام صار له الاعتبار بوصفه دينا منتشرا في هذه البلاد فيما بين القرن العاشر والخامس عشر الميلاديّين، مع أنه غير مستبعد بل في أغلب الظن أنه وجد في المنطقة جماعات وأفراد اعتنقوا الإسلام منذ الصدر الأول أو ما بعده بقليل. ومما سطره لنا التاريخ بخصوص انتشار الإسلام في المنطقة أن الملك همي جلمي ملك مملكة برنو اعتنق الإسلام على يد ابن ماني عام: (1079 – 1086)م[1]. وأما في ولايات هوسا فقد اعتنق ملوكها الإسلام عن طريق التجار والدعاة العرب: المغاربة والشناقطة، وكذلك الوناغرة والطوارق، فقد ذكر المؤرخون

[1] - آدم عبد الله الألوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، ط:2، 1398هـ، 1978م، ص: 30.

مثلا أن ملك كنو علي ياجي أسلم عام (1349 – 1385)م، وبإسلامه دخل أهل مملكته في دين الله أفواجا.[2]

ومن الملاحظ أن الإسلام ينتشر في البلد أو المنطقة باعتناق الحاكم أو الأمير لتلك المنطقة للدين الإسلامي، وهذا يدلّ على عظم شأن الملك ومدى خطورته وتأثير الحاكم على المحكومين.

وبانتشار الإسلام في تلك الربوع بدأ تأسيس المدارس القرآنية فيها ليتعبّد الناس ربهم على بصيرة؛ وليتمكّنوا من حفظ أهم المصادر الإسلامية الأساسية، وقد ساهم أولو الحل والعقد من الأمراء والسلاطين في دفع عجلة تعليم وتعلّم القرآن الكريم إلى الأمام، ففي مملكة كانم برنو، ساهم السلطان همي جلمي في تأسيس المدارس القرآنية، ورعاية حفاظه أيما مساهمة، وذلك منذ ختمه للقرآن على يد شيخه ابن ماني، أخذ يؤسس المدارس القرآنية، ويرعى أهل القرآن، ويضع عنهم الخراج وسائر الإلزامات الحكومية، ويأمر الشعب قاطبة باحترامهم وتبجيلهم، وقد استمرّ بهذه الخلال الطيبة كلّ من ولي مملكة سيفاوا من أبنائه وأحفاده، أمثال الملك سلمة بن بكر، والسلطان مَي علي غاجي، وجلالة الملك إدريس ألوما: الذي أولى حفاظ القرآن الكريم مزيدا من العناية والاحترام في عصره[3].

وأما في ولايات هوسا فيرى البعض أن المدارس القرآنية يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن الثامن الهجري[4] حيث أسّس الشيخ أحمد المصري الملقب ب: "ولي مي غيزا" مدرسته القرآنية في حارة غبار في ذلك القرن، وكان يدرّس فيها القرآن والفقه المالكي، وحذا حذوه كلٌّ من فتح الله بو رأس القيرواني المشهور ب: "بنسرن دال"، والشيخ زغيتي "بمطاتي" وغير هؤلاء من المشائخ[5].

بينما يرى البعض أن المدارس القرآنية بدأ تأسيسها في كنو في عصر الملك علي ياجي (1349 – 1385)م، الذي بنى مسجدا جامعا، يدرَّس فيه القرآن وسائر العلوم الدينية، غير أن قلة المدرسين للقرآن في ذلك العصر أدّى إلى اقتصار التعليم القرآني لأبناء الأسرة المالكة فقط دون غيرهم، وفي عهد الملك محمّد رمفا (1463 – 1499)م، زار مدينة كنو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (909)هـ، الذي طلب من الملك بناء مؤسسة عريقة لتعليم القرآن للجميع، فلبّى طلبه، وأسّس مؤسسة قرآنية سمّيت بـ" مؤسسة البر"، وببناء هذه المؤسسة انتشر التعليم القرآني في البلد، وبدأ الناس من سائر أنحاء مدينة كنو والقرى التي بجوارها يحذون حذوها، وطفق هذا النظام يزدهر حتى إلى عهد الملك أبي بكر كادو (1565 – 1575)م، الذي فكّر في بناء داخليات كبيرة لحفظة القرآن، وساعده في ذلك التجار المعاصرون له، فأصبحت مدينة كنو بهذا العمل العملاق مدينة القرآن وأهل الله وخاصته[6].

وبعد الحركة التجديدية التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي، استمرّ هو وأعوانه بالسير على نمط نظام "مؤسسة البر" في التعليم القرآني وتطويره، قيل إنه كوّن لجنة يترأّسها الشيخ عبد الله بن فودي، فأُسست المعاهد الدينية التي تعنى بتدريس القرآن والعلوم الإسلامية لجميع الأهالي في جميع

---

[2] - شيخو أحمد سعيد غلادنث (الدكتور): حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، شركة العبيكان، الرياض ط:2، 1414هـ - 1993م. ص: 27.

[3] - Sunusi Iguda K/Nasarwa: Tsarin Tsangayun Alkur'ani a Arewacin Najeria: Tarihinsu da Zamantakewarsu, da Hanyoyin Raya su; 2006, p7 – 9.

[4] - محمد آدم أبو بكر: المدارس القرآنية في مدينة كنو: نشاتها منهجها وتطوّرها، بحث تكميلي مقدم إلى قسم اللغة العربية، بجامعة بايرو كنو، لنيل درجة الماجستير، عام: 1990م، ص: 23.

[5] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[6] - Sunusi Iguda K/Nasarwa: المرجع السابق، ص: 13 – 14.

المدن والقرى التابعة لدولة صكتو، وقيل: إنه أرسل المصاحف المكتوبة برواية ورش عن نافع إلى جميع هذه المعاهد لتعليمه[7].

دور طلبة العلم في حفظ القرآن الكريم في نيجيريا.

ليس من السهل تحديد الزمن الذي بدأ طلاب العلم النيجيريون فيه يتخصصون في الدراسات القرآنية، أو بعبارة أخرى يهتمون بالقرآن الكريم فقط وتلاوته وحفظه وكتابته على حساب المواد الإسلامية الأخرى؛ لأنه منطقيا ينبغي جمع عدة مواد في آن واحد لفهمها وتطبيقها، فالإسلام نزل جميعا بعقائده وأحكامه وأخلاقه وآدابه، لكنه قد يجد الطالب رغبة وميولا أكثر في مادة من المواد في حين أنه لا يشعر بنفس الرغبة والميول في المادة الأخرى، وقد حصل نفس الشيء في عصر النبوة، فصحابته الكرام فيه من كان تخصصه التفسير وعلومه، ومنهم المتخصص في الفقه الإسلامي، ومنهم الفرضي، ومنهم من اشتغل بالدعوة حياته، وهكذا.

إن الأصل في المدارس القرآنية الأولى في نيجيريا الدمج بين التعليم القرآني والمواد الإسلامية الأخرى، فيبدأ الطالب بتعلّم القرآن أوّلا، ثم يستمرّ في سائر المواد الإسلامية كالفقه والتوحيد والحديث وغيرها، غير أن طابع التخصص ظهر أخيرا في الساحة، فتأسست المدارس القرآنية، وانشغل علماؤها بتدريس القرآن وتحفيظه ثم الاستعداد لرسمه على الألواح، وبعد إتقان كتابة اللوح يأتي دور الكتابة على الأوراق، فهذه المدارس القرآنية لا يدرّس فيها غير القرآن. وقد تقبّل أولياء الطلاب هذا النظام بقبول حسن، وأخذوا يرسلون فلذات أكبداهم إلى هذه المدارس كي تفتح أعينهم على تلاوة الذكر الحكيم، فأوّل ما يبدأ به الآباء والمربون في تربية الطفل في هذه البلاد، هو تعليمه القرآن، ثم إن سنحت الفرصة يضيف إليه المواد الأخرى.

وقد تأثّر النيجيريون في صنيعهم هذا بالمغرب العربي الذي منه دخل الإسلام إليهم في أحد الأقوال، فمذهبهم – كما ذكر ابن خلدون – "في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا فقه، ولا من شعرٍ ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة"[8].

ولهذه المدارس منهج واضح متبع للمبتدئين وآخر للمتوسطين والمتقدمين، وفي بيان منهج المبتدئين يقول الشيخ آدم عبد الله الألوري رحمه الله: "ومنهج القراءة أن يقرأ الصبي درسه المكتوب له في لوح يكتبه المعلم، أو العريف أو التلميذ نفسه، ويكرره حتى يتقنه، أو يحفظه، ثم يمحوه ليكتب مكانه درسا جديدا، ويقوم المعلم بتلقين الدروس لتلميذه، ثم يجلس أمامهم على الحصير، وهم ملتفون حوله، وبيده عصا، أو درة، يضرب بها التلميذ إذا أخطأ القراءة، أو فر عن الدرس، أو غاب عنه، أو تأخر عن الحضور، أو أساء الأدب"[9]

---

[7] - المرجع السابق، ص: 15

[8] - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت – لبنان، ط5، 1984م، ص: 538.

[9]- آدم عبد الله الألوري: نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، دار العربية بيروت، الطبعة الثالثة (1401ه) (1981م)، ص (35).

وأما منهج المتوسطين والمتقدمين، فقد وصفه الدكتور علي أبوبكر رحمه الله بقوله: "هو أن يكتب التلميذ الثمن الأول من سورة البقرة على لوحة، ثم يأتي به إلى المقرئ الذي يقرئه إياه بدقة مشيرا إلى جميع أماكن المد والإدغام، والوصل، والوقف ومخارج الحروف وما إلى ذلك، ثم ينصرف التلميذ لحفظ هذا الثمن، حتى إذا أتقن حفظه عاد إلى المقرئ وأسمعه إياه فإذا أقنع أعره بالمضي إلى الثمن الذي يليه، وهكذا حتى يحفظ القرآن كله، وتختلف مدة الحفظ حسب اختلاف قوة ذاكرة التلميذ، ولكنها في الغالب تتراوح بين ثلاث سنوات، وخمس، وربما زادت على ذلك".[10]

ومن أجل عناية النيجيريين بهذا المنهج يُرسلون أبناءهم في طفولتهم المبكرة إلى تلك المدارس القرآنية، فيتلقّى الطالب فيها مبادئ الحروف عن طريق تعليم القرآن نفسه وتلقينه له، فيكتب له الفاتحة أولا، ثم سورة الناس حتى إلى سورة الفيل، يُعَلَّم فيها كيفية نطق الحروف، فإذا أجاد نطقها، أعيد من أول سورة الفاتحة لكن في هذه المرحلة يتعلمها مع الشكل، ثم إذا أتقن القراءة مع الشكل يعاد مرّةً ثالثة ليتعلّم كيفية نطق الكلمات مع الجمل.

ومن المعلوم أن الطالب في هذه المرحلة يُركّز في تعليمه على قصار السور، ويتولّى مدرّسه أمر كتابة القرآن له على لوحه (الطالب) حتى ينتهي به الأمر إلى سورة الأعلى، أو سورة النبأ، عن طريق التلقين، يبدأ الأستاذ بقراءة القطعة القرآنية فيعيدها الأطفال، حتى إذا أتقنوا القطعة، أخذ معهم إلى التي تليها مع المحاولة كل المحاولة في الربط بين القطعة السابقة والقطعة اللاحقة، فإذا وصلت قراءة الطالب إلى سورة النبأ يؤمر بالكتابة بنفسه، ويُعلّم كيف يكتب، وكيف يبري القلم، وكيف يصنع الدواة، وكيف يحتفظ بنظافة اللوح، وما إلى ذلك. يكتب الطالب درسه القرآني رويدا رويدا، حتى إذا وصل إلى سورة الأحقاف بدأ يكتب الثمن يوميا حتى يختم القرآن، وطبعا، هذا يختلف من شخص إلى شخص، فمن طالب مجد وآخر كسول.

ففي كلّ يوم على الطالب أن يحضر بلوحه أمام شيخه فيقرئه المكتوب، وذلك بقراءة الشيخ أولا، ثم إعادة القراءة والطالب يعيد، ثم يؤمر الطالب أن يقرأ بنفسه، ثم يستمرّ يقرأ حتى إلى نهاية اليوم، والشيخ يتجوّل في الفصل (الذي غالبا ما يكون حجرة داره، أو المسجد) ويصحّح أخطاء الطلاب في القراءة، حتى إذا أتقن الطالب ما كتب، أُمر بغسله وكتابة الدرس الذي يليه، يستمرّ على ذلك الأسلوب إلى أن يختم القرآن الكريم.

ومن الطلاب من يكتفي بختمة واحدة على هذا النمط، ومنهم من يبدأ بحفظه بعد الختمة الأولى حتى يسير ماهرا بالقرآن، ومنهم من لا يستمرّ بالدراسة بل ينقطع عنها كما ذكر ابن خلدون ويشتغل بالتجارة أو حرفة من الحرف الأخرى، غير أن الطلاب الذين يتخلّون عن القرآن ومدارسته، وينخرطون في السلك الحرفي أو التجارة ليسوا موضع دراستنا في هذه الورقة

ومن الأعراف والتقاليد التي درج عليها الناس في نيجيريا قديما، أن الطالب إذا ختم القرآن يتلقّى حفلا ممتازًا من الأقارب حيث يُعدّ له وليمة يحضرها القاصي والداني من الأحباب والإخوان والخلان، ويلبس عندها تاج العزّ والكرامة، وعلى أولياء أمر الطالب إحضار الهدايا المالية والعينية، فيوزّع لهذه

---

[10]- علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا، الطبعة الأولى (1972م) مؤسسة عبد الحفيظ البساط بيروت ص (154).

المناسبة كلّ ما لذّ وطاب من الأطعمة والأشربة، ولشيخه نصيب الأسد من العطايا والهبات في ذلك الحفل[11].

ومن الملاحظ من عادات القراء في نيجيريا اهتمامهم بالرحلات في طلب القرآن، وهذه الرحلات منها ما يبعث الطلاب إلى القرى والأرياف منذ الصغر، يشتغلون بالقرآن تلاوةً وحفظا، فيمرّون بجميع المراحل وهم ناءون عن الأوطان، إلى أن يكملوا حفظ القرآن، ويمارسوا كتابته، ومن الرحلات ما يمكث الطالب في بلده الأم، فيقطع شوطا كبيرا في إجادة التلاوة، ثم يسافر إلى البلاد المشهورة بالقرآن لكي يحفظه هناك، ويكتب مصحفه إن سنحت له الفرصة، ومن الرحلات ما تكون بعد إكمال الحفظ وأحيانا بعد كتابة القرآن، الغرض فيها إما الاشتغال بكتابة القرآن، أو التعمّق في الحفظ المتقن، وزيادة حصيلة علمية في علم التجويد، ويسمّى هذا النوع بالعرف الهوسوي بـ "غوغا" Guga أي الإجادة والإتقان[12].

عناية الحفاظ برسم القرآن ومجهوداتهم في ذلك.

كل ما ذُكر في النقطة السابقة يتعلّق بحفظ القرآن عموما، وهنا يورد الباحث عادات القراء النيجيريين ومجهوداتهم في الرسم القرآني المشهور بالرسم العثماني. وقبل إيراد تلك الجهود ينبغي التعريف بهذا النوع من الرسم.

الرسم العثماني: هو الكتابة القرآنية التي كُتِبَ بها مصحف عثمان بن عفان، وهذه الكتابة لها طريق خاصة تخالف الطريق التي اتبعها العلماء فيما بعد ودرجوا عليها، ودوّنوا فيها كتبا، تعرف بالرسم الإملائي، أو رسم الحروف، أو علم الإملاء، وبه كتب جميع المؤلفات من القرن الثالث فما بعده إلى اليوم. أما كتابة المصحف فهى تابعة للطريق التي كتب بها المصحف فى عهد عثمان ابن عفان الخليفة الثالث على يد جماعة من كبار الصحابة، وقد اتُّبع فيها نهج خاص يخالف ما اتُّبع فيما بعد فى كثير من المواضع، ومن ثم قيل: خطان لا يقاس عليهما: خط العروض، وخط المصحف العثماني[13].

من عجيب ما اعتنى به القراء النيجيريون اهتمامهم بالرسم العثماني في كتابتهم للمصاحف، واتباع قواعده من غير مخالفة ولا خلل، ولم يكن لهؤلاء الحفظة كتاب يدرسونه، ولا منظومات علمية يحفظونها، فيطبقون ما تعلّموا عند الكتابة، وإنما فقط يكتسبون قواعد الرسم العثماني بواسطة كثرة الكتابة التي تبدأ من أيام الحفظ، وإذا أتمّ القارئ حفظ القرآن هناك مرحلة تسمى بالعرف الهوسوي "ساتو" satu، وتعني أن الحافظ يكتب الجزء المخصص على اللوح عن ظهر قلب، فيأتي به أمام شيخه ومجموعة من القراء وأهل الإقراء، فيقرأ ما في اللوح والشيخ يقوّم له أخطاءه في الكتابة، ثمّ إذا أكمل المدارسة القرآنية بهذه الطريقة يعيد الكتابة، وفي هذه المرحلة يكون قد صحّح للختمة الثانية كثيرا من الأخطاء التي ارتكبها في المرة الأولى، ثم يعيد الكتابة مرة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن يجيد

---

[11] - Babs Fafunwa: History of Education in Nigeria, NPS Educational Publishers Limited, Ibadan, 2004, p 58.

[12] - مقابلة الباحث مع الإمام الماهر بالقرآن شيخو سليمان في بيته ببيبيجي، بتاريخ: 2016/5/10م، وهو من أحفاد الماهر زكريا بن إدريس.

[13] - المراغي، أحمد مصطفى: تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، بدون تاريخ، ج1، ص: 13. بشيء من التصرف.

ويتقن فن الرسم العثماني. وبعض الحفظة يتقنون فن الرسم بعد إكمال الكتابة على الألواح خمس مرات، وبعضهم يكتبه سبع مرات، ولا يتسنى لحافظ أن يكتب القرآن على الأوراق إلا بعد مروره بهذه المرحلة، أي بعد أن تمكّن من تصحيح جميع الأخطاء الكتابية في مرحلة الكتابة على الألواح[14]، وهذا الجهد من خصائص قرّاء نيجيريا فيما أعلم.

ولأجل التجارب التي اكتسبها القراء النيجيريون في كتاباتهم للقرآن الكريم جيلا بعد جيل، هناك حيل يضعونها في عين الاعتبار للمحافظة على المشكل من مرسوم الخط العثماني، وللتمييز بين المتشابه منه، ومن ذلك ما يسمونه بلغة هوسا "حرجي" Harji، ويعنون به أن الكلمات القرآنية إذا وردت بعدد معين، يحاولون فهم ذلك العدد، وإذا كان من بينها ما خالف نظيره في كيفية الكتابة، يحاولون معرفة ذلك المخالف، ويضعون له علامة تميزه عن غيره، ويستعينون في ذلك برموز أباجاد، أي الحروف الأبجدية التي تمثّل الحروف الحسابية، وهي: أبج دهز حطي كلم نصع فضق رست ثحذ، ظغش، ومما يعتبر به الحفاظ في ذلك ما يسمى بلغة هوسا "لوغا" Loga ويسميه بعضهم: لغات القرآن، ويعنى بـ"لوغا" الحيلة، أي الحيلة التي يضعها الحافظ في عين الاعتبار للتمييز بين المتشابهات، ولإجادة فن الرسم العثماني.

وهذا الذي يتبعه الحفاظ ليس جديدا في عالم الدراسات القرآنية، وخاصة في علم الرسم العثماني، وإنما الجديد فيه هو استعمالهم الرموز، وأحيانا تركيب الحروف لتصبح كلمة يتميزون بالكلمة بين المتشابه من القرآن، وأحيانا استعمالهم العدد إما بلغاتهم المحلية أو غيرها، كأن يقولوا مثلا: "السماوات والأرض" بفتح الضاد من الأرض ورد في ست وثمانين موضعا في القرآن الكريم، ثم يحاولون معرفة تلك المواضع والتمييز بينها وبين سائر المواضع التي وردت بالكسر.

خصائص الرسم العثماني:

من المعلوم أن للرسم العثماني خصائص ومميزات تميزه عن غيره من أنواع الخطوط العربية، وتظهر أهم هذه الخصائص في الحذف والإثبات، والقطع والوصل، وتاء التأنيث، وموضع البحث في هذه التاء هو هل تكتب مفتوحة أم مربوطة[15]، ولا بد للكاتب أن يتقيّد بهذه الخصائص عندما يكتب القرآن الكريم، ولا يحيد عنها بحال من الأحوال إلى ما سواها، قال الناظم رحمه الله:

فواجب على ذوى الأذهان أن يتبعوا المرسوم في القرآن
ويقتدوا بما رأوه نظرا إذ جعلوه للأنام وزرا
وكيف لا يجب الاقتداء لما أتي مصابه الشفاء
إلى عياد أنه من غيرا حرفا من القرآن عمدا كفرا
زيادة أو نقصا أو ان يبدلا شيئا من الرسم الذي تأصلا[16]

ومن المستحسن في هذا الصدد الإتيان ولو بمثال واحد يوضّح خصائص الرسم العثماني، ويورد الباحث هذا المثال من قبيل خصيصة القطع والوصل، وهو أن "يوم" مع "هُمْ" تكتب موصولة هكذا: "يومهم"، إلا في موضعين وهما: (يوم هم بارزون) بسورة غافر، و(يوم هم على النار يفتنون) بالذاريات[17]،

[14] - مقابلة الباحث مع الإمام الماهر بالقرآن شيخو سليمان، المرجع السابق.
[15] - عبد الباسط هاشم: الأنوار البهية في حل ألفاظ الجزرية، بدون تاريخ، وبدون بيانات النشر، ص: 85 – 118.
[16] - المرجع السابق، ص: 98.
[17] - المرجع السابق نفسه، ص: 109.

فإنها تكتب مقطوعة كما قد رأيت. وهذه القواعد الموضوعة لعلم الرسم العثماني لم يدرسها حفاظ القرآن النيجيريون، وإنما حفظوها عن طريق المران، وعن طريق الحيل التي يبتكرونها من عند أنفسهم، وهذا مما يحمدون عليه، ويستحقون الاحترام والتقدير من قبل الباحثين.

ومما يؤثر عنهم أنهم حينما يشتغلون بكتابة المصاحف يلتزمون الإخلاص، ويحاولون جاهدين ألا يكتبوا شيئا من القرآن الكريم إلا وهم على وضوء، ومنهم من يلتزم ألا يكتب شيئا بعد الوضوء إلا صلى ركعتين، فكلّ هذه اللزوميات من الأمور التي ساعدتهم في أن يتقبّل الله منهم هذه العبادة، فجعل مصاحفهم التي يكتبونها بخطوط أيديهم لها ميزة خاصة عن غيرها من المصاحف المطبوعة، فقيمتها عند الشراء أغلى، وفي المحاكم الشرعية تودع هذه المصاحف، يطالب الإنسان بأن يحمل هذه المصاحف، إذا كان مطالبا بالحلف بالله على أمر من الأمور، وعندما ينصب أمير أو وال أو مسئول فإنه ثبت في أعراف النيجيريين وتقاليدهم أن يحمل المسئول المصحف، ثم يعهد بالله أنه يعدل بين الرعية، وغالبا ما يحملون المصاحف المخطوطة لا المطبوعة.

نبذة يسيرة عن حياة الماهر زكريا بن إدريس:

هو الماهر بالقرآن زكريا بن إدريس بن عبد المؤمن، ولد في حي عنغور مالمي ببلدة بيبيجي، وكان أبوه إدريس بن عبد المؤمن من الحفاظ المتقنين للقراءة القرآنية، قيل: إنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن ستة عشر سنة، وكان قد رحل في طلب القرآن إلى أماكن نائية مختلفة، منها: مدينة ميدغري، وفلّومي، وكوكاوا، وغورو، وغيرها، فلمّا أتقن القراءة، ونال شرف الحفظ وإتقان الكتابة، رجع إلى مسقط رأسه بعنغور مالمي، وتزوّج، واستمرّ في كتابة المصاحف، قيل: إنه كتب اثنى عشر مصحفا في حياته، كما اشتغل بالفقه الإسلامي من كتاب الأخضري حتى إلى الموطّأ، ومن أبرز أساتذته في الفقه الشيخ بابلى بيبيجي، وبعد زواج الماهر إدريس بأربع سنوات رزقه الله ولدا بكرا، سماه زكريّا ويقدّر عام مولده ب: 1865م، نشأ الماهر زكريّاء في كنف أبيه، واعتنى به وبتربيته، وحضّه على الاعتناء بالقرآن، وقد وفّقه الله بالحفظ الجيد وهو ابن ست عشر سنة مثل أبيه، ثم طلب العلم الشرعي منه، بداية من كتاب الأخضري والعشماوي والرسالة وإرشاد السالك والمختصر إلى أن درس الموطأ للإمام مالك، كل ذلك عند والده، وبدأ يمرّ بمراحل الكتابة القرآنية عنده، ولم يرحل من بيبيجي إلى بلد آخر طلبا للقرآن، وإنما حصل له الفتح المبين وهو في بيت والده[18]، وقد تزوّج الماهر زكريا من عدّة زوجات في حياته، منهن: عائشة وميمونة، وَوُلِد له ولدان وثلاث بنات هم: موسى، ومحمد يارو، وفاطمة، وميمونة، ورحمة. وبعد وفاة والده اشتاق إلى الرحلات العلمية، ليتقن من فنون العلم ما لم يحصل عليه عند والده، قيل: إنه سافر إلى مدينة كنو، ومكث عند العلامة محمد سلغ، وهذا المكث كان له قصدان مختلفان: ليمكّن نفسه من معرفة العلوم التي ليست متوفّرة في منطقته، وليجيد إتقان التلاوة القرآنية. ومما يروى عنه أنه كان مشغولا بالكتابة، فقد كتب تسعة مصاحف في حياته، وأما الكتب العلمية فكان يستعيرها ويكتبها ثم يرد الأصل إلى أصحابها. وكان الماهر زكريا من الذين يضرب بهم المثل في الزهد في الدنيا والاشتغال بالقرآن، فكان لا يشبع في حياته، وإنما هي لقيمات يقمن بها صلبه، ثم يعود إلى التلاوة.

[18] ـ مقابلة الباحث مع الإمام الماهر محمد الثاني قرو، في بيته بقرية قرو، بتاريخ: 2016/5/12، وهو من أبناء زوجة الماهر زكريا بن إدريس ميمونة، تزوّجت بعد وفاة الماهر، فولدت الماهر محمد الثاني قرو، وقد أخبرني أن جميع المعلومات المتعلقة بالماهر زكريا تلقاها من أمه.

وبعد حياة حافلة بالعطاء لبّى الماهر نداء ربه، وانتقل إلى جواره عام 1933م عن عمر يناهز السبعين[19]، قيل: إنه توفي في عهد ملك كنو عبد الله بايرو[20].

آثاره:

تتمثّل آثار الماهر زكريا بن إدريس في أولاده، والذي اشتهر منهم بالقرآن هو محمد يارو، وتوفّي قبل أن يتزوّج، وقد كتب المصحف قبل انتقاله إلى جوار ربه.

ومن آثاره: طلبته الذين هم كثيرون، وأبرزهم: الماهر مختار زابي Zabi، وهو الذي ورث كتبه وما نسخه من مؤلفات، وورث كذلك أبرز أثر من آثاره، وهو المصحف المخطوط بخط يده.

إلقاء الضوء على مخطوط الماهر زكريا في القرآن الكريم:

إن مخطوط الماهر زكرياء بن إدريس يعدّ من أقدم المخطوطات القرآنية الموجودة حاليّا في قرية بيبيجي إن لم يكن أقدمها، فتقدّر سنة كتابته بـ: 1909م؛ لأن الذي يظهر والعلم عند الله، أن ذلك المصحف هو من أوائل ما كتبه، وقد سبق أنه كتب تسع مصاحف في حياته، وتصدّق بها جميعا، ولم يكن يبيعها.

والذي يظهر والعلم عند الله، أن الماهر سلك في كتابته دأب المهرة بالقرآن قبله، من التقيّد بالوضوء وأداء صلوات النوافق قبل البداية بالكتابة، وهذا المصحف من أحبّ المصاحف التي كتبها بيده إليه، فكان لا يفارقه في الحضر والسفر، وبه يستعين عند تلاوة القرآن، الأمر الذي لفت انتباه تلاميذه وأصحابه إليه. ومن عجيب ما تفرّد المصحف أن الماهر استعمل فيه بعض الرموز: كـ، م، مثلا من بداية سورة الفاتحة إلى نهاية سورة البقرة في بعض المواضع من الآيات، وقد أخبرني الماهر عمر بن المختار رحمه الله أنه إلى الآن لم يفهم معاني هذه الرموز، والذي ظهر لي والله أعلم أن تلك الرموز تشير إلى أماكن الوقف.

وهذا المصحف يروى أن له شأنا كبيرا وهو أنه بعد وفاة الشيخ وقع حادث حريق في البيت الذي وضع فيه، فتلف جراء الحريق كل شيء ما عدا ذلك المصحف الشريف، الأمر الذي لفت نظر الطلاب إليه، فأخذوا يولونه عناية خاصة، ويهتمّون به في شئونهم، ويتبرّكون بوضعه في بيوتهم، ويقدّمونه إلى المحكمة الشرعية عند الحاجة إلى الحلف كما قد سبق ذكره[21].

إن هذا المصحف المخطوط لآية في إتقان الكتابة وجودة فن الرسم، فعلى الرغم من مرور عقود على كتابته، إلا أنه لا يزال يرى عليه أثر الإتقان واستقامة اليراع، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على اهتمام أسلافنا بالإتقان الذي نادى وأمر به رسولنا الكريم في قوله: "إن الله يحب عبدا إذا عمل عملا أن يتقنه".

الخاتمة:

---

[19] - مقابلة الباحث مع الإمام الماهر محمد الثاني قرو، المرجع السابق.

[20] - كانت فترة إمارة الأمير عبد الله بايرو ما بين 1926 – 1953م، انظر: الإعلان بتاريخ كنو، للشيخ آدم بن محمد نمأجي، مخطوط، ص: 42 – 50.

[21] - مقابلة الباحث مع الإمام الماهر عمر بن الماهر المختار (زابي) رحمه الله في بيته ببيبيجي، بتاريخ: 2016/2/20.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، نبينا محمد وآله وصحبه أولي الدرجات العليات، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وقد أسفرت الكتابة عن أهم النتائج كالآتي:

1. إن العناية بالقرآن الكريم من العادات المتأصّلة في الشعب النيجيري المسلم قديما وحديثا.
2. إن القراء النيجيريين لهم خصائص ومميزات تميزهم عن غيرهم من سائر القراء.
3. إن العناية بالرسم القرآني وحفظ قواعده عن ظهر قلب من أميز خصائص القراء في نيجيريا.
4. إن الماهر زكريا بن إدريس من ضمن القراء النيجيريين الذين أجادوا فن الرسم القرآني، وقد حفظ الأجيال مخطوطه في القرآن لمدة تفوق مائة سنة.
5. إن من الأمور التي أدّت إلى الحفاظ على هذا المخطوط ما يروى في شأنه من عجائب حصلت له، فكان أقرب أصحابه إليه وهو الماهر المختار (زابي) اعتنى به كثيرا، ثم حفظه من بعده ابنه الماهر عمر بن المختار.

المراجع والمصادر:

آدم بن محمد نمأجي: الإعلان بتاريخ كنو، للشيخ ، مخطوط.
آدم عبد الله الألوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، الطبعة الثانية: 1398 هـ، 1978م.
ـــ

المقابلات الشخصية:

مقابلة الباحث مع الإمام الماهر بالقرآن شيخو سليمان في بيته بيبيجي، بتاريخ: 2016/5/10م، وهو من أحفاد الماهر زكريا بن إدريس.
مقابلة الباحث مع الإمام الماهر عمر بن الماهر المختار (زابي) رحمه الله في بيته بيبيجي، بتاريخ: 2016/2/20.
مقابلة الباحث مع الإمام الماهر محمد الثاني قرو، في بيته بقرية قرو، بتاريخ: 2016/5/12، وهو من أبناء زوجة الماهر زكريا بن إدريس ميمونة، تزوّجت بعد وفاة الماهر من شخص آخر محترم، فولدت له الماهر محمد الثاني قرو، وقد أخبرني أن جميع المعلومات المتعلقة بالماهر زكريا تلقاها من أمه.

المراجع غير العربية:

Babs Fafunwa: History of Education in Nigeria, NPS Educational Publishers Limited, Ibadan, 2004.
Sunusi Iguda K/Nasarwa: Tsarin Tsangayun Alkur'ani a Arewacin Najeria: Tarihinsu da Zamantakewarsu, da Hanyoyin Raya su; 2006.

ملحق يحتوي على صفحات من هذا المصحف الشريف